

أُسُسُ الدَّعوة عند الملامتية

بسم

فوزي أحمد العظمي ر.ل.هـ

مدرس مساعد بقسم الدعوة

ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور
بخراسان فرقة من فرق الصوفية أطلق عليها اسم الملامتية أو الملامية أسسها
رجال من أصدق رجال الطريق في ذلك القرن الذي اعتاز في تاريخ
التصوف الإسلامي بالورع والتقوى الحقيقيين ، كما اتاز بقوة العاطفة
الدينية ، وجهاد النفس الضيف ومحاربتها ومحاسبتها على كل ما فرط منها .
وما يَحتمل أن يفرط منها .

وليس مسلك الملامتية إلا صورة من صور الزهد الغالبة في ذلك العهد
ولا أقول من صور التصوف ، لأن مسلك الملامتية مسلك عملي من أوله
إلى آخره ، ومجموعة من الآداب يقصد بها مجاهدة النفس ورياضتها ،
بجاهدة ورياضة تؤديان بالسالك إلى إنكار الذات ، ومحو علام القروور
الإنساني ، وإطفاء جذوة الزياء في القلب ، أكثر من تأديتها إلى أحوال
الجلب ، والنحو ، والفناء ، والإتصال ، والسكر ، والمعاينة ، والجمع ،
وما شاكل ذلك من أحوال ومقامات تسكلم فيها غيرهم من الصوفية ، بل إن
كانت ميزة يمتاز بها مذهب الملامتية حقاً ، فهي محاربتهم في تعاليمهم كل
مظاهر التصوف السابقة ، ومحاولتهم الرجوع بالزهد الإسلامي إلى سيرته
الأولى .

واللامية — أو الملامتية على غير قياس — اسم مشتق من الملامة التي

هي بجمع وتأنيب للنفس ، وليس بعيد أن يكون اسم الملامية متصلاً ببعض الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر اللوم كقوله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » (١) وقوله : « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (٢)

فإن الآية الأولى تعني من شأن النفس اللوامة إصاحبها ، المؤنبية المحاسبية له على كل ما يصدر منه ، وهي النفس السكاملة في إصلاح الملامية ، وتذكر الآية الثانية من صفات عباد الله الذين يحبهم ويحبونه ، أنهم أذلة على المؤمنين أحره على الكافرين ، وأنهم في جهادهم في سبيل الله وإخلاصهم في ذلك الجهاد لا يخافون في الله لومة لائم ولا يكثرئون بمدح الناس وطمعهم .

وإذا فهمنا الجهاد بالمعنى الصوفي أو الملامية - أعني جهاد النفس - أدركنا أن الآية تشير إلى أخص صفات الملامية وأنها تصلح لأن تتخذ أساساً لمذهبهم وتكون مصدراً لإسمهم .

وبما يميز هذا الفرع قول محدثي القصار وهو من أكابر مشايخهم وأوائل مؤسس فرقتهم ، وقد سئل عن طريق الملامية فقال : ترك الدين للخلق بحال ، وترك طالب رضاهم في نوع من الأخلاق والأحوال ، ولا يأخطك في الله لومة لائم ، (٣) .

وقد اختص بهذا الاسم (الملامية) أهل خراسان ، يقول السهروردي صاحب عوارف المعارف ، ولم يزل في خراسان منهم طائفة ومشايخ يمدون أسامهم : ويعرفونهم بشروط جاهلهم ، وقد رأينا في العراق من

(١) القيامة ٢

(٢) المائدة ٥٤

(٣) رسالة الملامية : نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت عنوان

(أصول الملامية وغلطات الصوفية) رقم ١٧٨ تصوف

يسلك هذا المسلك ، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم وقبله تتداول السنة أهل العراق هذا الاسم (١)

ولكن ما المراد باللامنة التي ينسب إليها الملامية ؟ أم هي لوم الملام ؟ أم هي لوم النفس إياه ؟ أم لوم الملام في الدنيا وأهلها ؟ أم لوم الدنيا فليس من نظام الملامية في شيء لأن في تعاليمهم الصريحة التي عن الدنيا ، رأى أبو حفص التيسابوري بعض أصحابه وهو يذم الدنيا وأهلها فقال ظهرت ما كان سيئلك أن تحفبه لا تعجبا لسناء بعد الله ولا تعسافينا (٢) أما المعنيان الآخران فيدخلان في جوهر الفكرة الملامية ؛ فاللامنة النفس واللامنة الغير ، تميز عبارة أبي حفص وقت شئ عن مذهبه فقال : أهل اللامنة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا لخالق قباح ما هم فيه وكنتموا عنهم محاسنهم فلامهم الخلق على ظواهرهم ولا موارفهم على ما يعرفونه من بواطنهم (٣) وهذا أكمل تعريف للفكرة الأساسية في المذهب الملامى

واللامنية حركة متميزة من فرق زهاد المسلمين ، طسا طابعها الخاص بحياتها الروحية الخاصة بالرغم من أنهم يعتبرون عادة من بين طوائف الصوفية ، وقد تلبه إلى الفروق الواضحة بين الملامى والصوفى بعض رجال التصوف ومؤرخيهم ، فأشار إليها السلى في رسالته وابن عربى في فتوحاته والسهورردى في حوارف المعارف

أما السلى : فيقسم أرباب العلوم والأحوال - أى العلم الظاهر والعلم الباطن - أو أهل الرسوم وأهل الحقائق إلى ثلاثة أقسام : علماء الشريعة المشتغلين بظواهر الأحكام ومؤلاء هم الفقهاء ، وأهل المعرفة بالله المنقطعين إلى الله الزاهدين فيما فيه الخلق من أسباب الدنيا الذين جعلوا همهم في الله فكانوا له وبه وإليه ؛ ومؤلاء هم الصوفية .

(١) حوارف المعارف ص ٥٥ (٢) رسالة للملامية (٣) نفس المرجع

والطائفة الثالثة هم الذين زين الله بواطنهم بالقرب والإقبال به ، فلم يكن للإقتراف إليهم سبيل . وقد قار الخلق طائفتهم لثلاث يعرف الخلق أحواظهم فأظهر للخلق منهم صفاتهم الظاهرة التي تبدل على معنى الإقتراف لكي يسلم لهم حالهم معه تعالى ، وجعل لمن أسقى أحواظهم ألا يؤثر باطنهم في ظاهرهم لئلا يشتتن بهم الناس وهؤلاء هم الملامية .

فالصوفية مع الله أشبه بموسى عليه السلام لما ظهر أثر باطنه في ظاهره عندما كله ربه فلم يطلق أحد النظر إليه ، واللامية مع الله أشبه بمحمد عليه السلام لم يؤثر باطنه في ظاهره بعدما ناله من القرب والدنو عندما رفع إلى المحل الأعلى ، فلما رجع إلى الخلق تسكلم معهم في أمور دينهم كما لو كان واحداً منهم وهذا أكل العبودية (١) .

أما ابن عربي : فيستعمل لاصم الملامية في معنى أوسع بكثير مما يفهمه السلي ، فهو لا يدل عند على طائفة معينة من طوائف الزهاد ولا يشير إلى وجهة نظر معينة في الدين ، أو في حياة الطريق الصوفي ، بل هو لاصم لصنف من أهل الله يعيشون في كل زمان ومكان ، لهم صفات خاصة يتميزون بها عن غيرهم يزدون ويقتصون بحسب الوقت الذي يظهر فيه .

وليس موطنهم خراسان ولا نيسابور ولا شيخهم حدونا القصار ، ولا أبا حفص أو أبا عثمان الجبيري ، على الرغم من أنه يذكر من مشايخ نيسابور من تحقق بمقام الملامية حدونا القصار خاصة . كما يذكر من بين من تحقق بهذا المقام أبا سعيد الخزاز ، وأبا يزيد البسطامي ، وأبا السعد ابن شبل ، وصيد القادر الجيلاني وغيرهم من مشايخ الصوفية حل

[اختلاف طبقاتهم وبلادهم ، وبعد نفسه واحداً منهم إذ يقول: وهو (أى)
مقام الملامية (حالة) (١) .

ويقسم ابن عربي السالكين إلى اقله إلى ثلاثة أقسام: العباد ، الصوفية ،
اللامية .

واللامية هم رجال قطعهم لله وإليه وصانهم حياطة الفيرة، عليهم لثلا
تمتد إليهم عين قد غفلهم عن الله . قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون
من عبوديتهم طرفة عين ، لا يعرفون للرئاسة طمعا لاستيلاء الريسية
على قلوبهم . وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله دون غيره
سوى هؤلاء (٢) .

وليك هذا البيان من أهل اللامية كما أورده السلي في رسالته فيقول
محدد أصول دعوتهم :

١ - من أصولهم أنهم رأوا الذين بشيء من العبادات في الطواهر
شركا والذين بشيء من الأحوال في الباطن إرتهداداً .

٢ - ومن أصولهم قضاء الحقوق وترك إقتضاء الحقوق .

٣ - ومن أصولهم أن الغفلة هي التي أطلقت للخلق النظار في أفعالهم
وأحوالهم ، ولو عاينوا أماناً من الحق إليهم لاستهفروا ما يبدو منهم في
جميع الأحوال ، واستهفروا ما لهم في جنب ما عليهم .

٤ - ومن أصولهم مقابلة من يهفونهم بالحلم ، والاحتمال والخضوع

(١) الفتوحات المكية ٢ - ٢١ - ٣٥ - ٤٤

(٢) الفتوحات المكية ٢ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٠ - ٥٢

والاعتذار والإحسان دون عقابهم بمثل ذلك ، وأصلهم في ذلك قول الله عز وجل لنبيه ﷺ : « أدفع بالتي هي أحسن » (١) .

٥ - ومن أصولهم إلتزام النفس في جميع الأحوال ، أقبلت أم أدبرت ، أطاعت أم عصيت وقلة الرضا عنها ، والميل إليها بحال .

٦ - ومن أصولهم ألا يقبلوا ما يفتح عليهم بهن ويسألوا بذل ، حتى إن أحدهم يسأل عن ذلك فيقول : في السؤال ذل ، وفي الفتوح عز ، وإقالاتنا كل إلا بذل لأنه ليس في اليهودية تمرد .

٧ - ومن أصولهم أن الأذكار أربعة : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر وذكر بالروح ، فإذا صح ذكر الروح سكنت السر والقلب عن الذكر . وذلك ذكر المشاهدة وإذا صح ذكر السر سكنت القلب والروح عن الذكر ، وذلك ذكر الهية ، وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعمة ، وإذا فغل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة .

٨ - ومن أصولهم : مخالفة لذة الطاعات فإن لها سموماً قاتلة .

٩ - ومن أصولهم تعظيم عاقبة عندهم من جميع الوجوه ، وتصغير ما يبدو منهم من المواقفات والطاعات وملازمة أحدهم مع الله من غير قصد من استنباط في قول أو اظهار ما يجب كتبه من الأحوال .

١٠ - وما ينبغي أصولهم ما ذكره التستري أنه قال : ليس للؤمن قس ، لأن نفسه ذهبت قليل له ، فأين ذهبت نفسه ؟ قال في المباينة :

قال الله تعالى : : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (١) .

١١ - ومن أصولهم : أن حسن الظن بالله غاية المعرفة ، وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها .

١٢ - ومن أصولهم : أن كل عمل وطاعة وقعت عليه رؤيتك واستحسنته من نفسك لذلك باطل .

١٣ - ومن أصولهم : رؤية تقصير أنفسهم ، ورؤية عذر الخلق لبياعهم فيه .

١٤ - ومن أصولهم أن أصل العبادة شيطان : حسن الافتقار إلى الله عز وجل : وهذا من باطن الأحوال ، وحسن القدوة برسول الله ﷺ وهو الذي ليس فيه لنفس نفس ولا راحة .

١٥ - ومن أصولهم : ترك الكلام في العلم والمجاهدة به وإظهار أحوال الله منه عند غير أهله .

١٦ - ومن أصولهم أن النظر إلى العمل والمحبب به من قلة العقل ، ورعونة الطبع كيف تفتخر بما ليس لك فيه شيء ، وما يجري من الغير إليه نسبة طارية ، وفي الحقيقة ليس لك معه نسبة ، لذلك مذهب فيه ، ويجوز عليه ، وهل الاختيار بهذا الأمر إلا من قلة العقل ورعونة الطبع ؟ وقد قال ﷺ : المنصنع بما يعطى كلابس ثوبي زور .

١٧ - ومن أصولهم من أكثر عمله قل عمله ، ومن قل عمله ، أكثر عمله .

قال أبو حفص : معناه من كثرة عمله إستقل كبير عمله ، لعله بتقصيره فيه ، ومن قل عمله إستكثر قليل عمله لقلة رؤية التقصير فيه واليب .

١٨ — ومن أصولهم في التوكل : حسبك من التوكل ألا ترى ناظراً غيره ، ولا لردك جالياً غيره ، ولا لعمالك شاهداً غيره .

قال أبو عبد الرحمن السلي رحمه الله بينت في هذه الفصول التي تقدمت من مشهور كلام مشايخهم وأتمتهم من ظاهر أصولهم ما نسال الله تعالى ألا يهرمنا بركاته (١) .

بما ذكرناه عن نفارة الملامية إلى النفس ومنزلتها ظهر لنا أن لهم هدفاً واحداً يرمون إليه ، وهو صدق المعاملة مع الله ، ذلك الصدق الذي لا يتحقق إلا بتصحيح الأحوال والمقامات والذي لا يتم إلا إذا لمعنى كل أثر — ظاهر أو خفي — من آثار الرياء ، ولذلك أنطوى ذلك الأصل من أصولهم على معظم تعاليمهم وكانت بمثابة حجر الزاوية في بناء مذهبهم .

وقد يتساءل عن الصفة أو الصفات التي امتاز بها مذهب الملامية من غيره ، وجوابنا عن ذلك أن الإتجاه الملامى في التصوف لم يتميز عن غيره من الإتجاهات الأخرى إلا في الأمور الآتية :

أولاً : في جلته : أي من حيث أنه مذهب له وحدة خاصة وجمعية معينة لأفئدة تفصيل المسائل الواردة فيه ، وإلا فالرياء والإخلاص والصدق ، والعبودية وما إلى ذلك معان نراها عند الصوفية على اختلاف طبقاتهم ، فالذي يمتاز به الملامى هو تأليف وحدة منسجمة من هذه المعاني التي لا توجد

في مذاهب غير الملامية إلا في صور فردية غير ملتزمة ، ثم محاولة تطبيق هذه المعاني ، وتطبيقها في الحياة العملية ، ولا أدري لغير الملامية نظاماً شككاً منسقا يرسى إلى إنكار الذات ومحو آثار النفس كنظامهم .

ثانياً : فيما فهمه الملامية من المصطلحات الصوفية من معانٍ سلبية ، وهذه التواحي السلبية هي المقصودة في الطريق الملامى ، لأنها موضع المجاهدة والمحاربة ، أما المعاني الإيجابية فأمور يلقبها الله في القلب بلقاء على سبيل المنة والفضل ، فاللامى لا يكتسب الإخلاص أو الصدق في طريقه ، لأن الإخلاص والصدق صفتان يمنحهما الله للمالك إليه إذا زال هو بمجاهدته ورياضته عوائق الإخلاص والصدق ، أى إذا داوم على اتهام نفسه وعلى محاربة ريائه ومحبه .

ثالثاً : في ذلك المشطار الأسود الذى نظروا إلى النفس من خلاله ، وأنكروا حاجها كل حسنة من حسناتها ، وسلبوها وجودها الحقيق وإرادتها وحسها ، وحرموها كل لذة حتى لذات الطاعات ، وكل فكرة حتى فكرة حب الله أو القرب منه وحسبوها جديرة بكل شر وإثم وقبح ، وهذه نظرة لاشك في أنها غير إسلامية ، قال تعالى : ونفس وما سواها فألهمها الجورها ونقرها ، قد أفلح من زكاهما وقد غاب من فساها ، (١) .

ويقول أيضاً : يا أيها النفس المطمئنة أرجس الذريرك راضية مرضية فادخل في عبادى وادخل جنتى ، (٢) .

وإذا كان الملامية قد أعلنتوا الحرب على الرياء في الأعمال والأحوال

(١) الشمس ٧ - ١٠ .

(٢) الفجر ٢٧ - ٣٠ .

والعلوم ، فإن حريمهم ضد الدناوى أشد وأظهر ، لذلك لا ترام يذهبون
لأنفسهم عبادة ولا صلاحاً ولا تقوى ، ولا خشوعاً ، ولا ورعاً ،
ولا زهداً ، ولا فقراً ، ولا ولاية ، ولا كرامة ولا حجة ، ولا وصولاً
إليه ، ولا حلولاً ولا فناء فيه ولا ألوهية ولا تخلقاً بصفات الألوهية ولا أية
صفة يتميزون عن سائر الخلق .

فإن صوفية اليوم من هذه الأسس العامة لكل متحقق يريد أن يذكر
نفسه ويظهرها من الصفات السلبية ويترقى بها إلى الصفات الإيجابية وفيه
دو القائل :

تقوم النفس بالعلوم ترقى وقد السكل فهو للسكل بيت
فأما النفس كالزجاجة والحسكة سراج ونور الله بيت
فإذا أشرقت فإنك حى وإذا أظلمت فإنك ميت

قال ابن عطاء الله : أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ،
وأصل كل طاعة ويقظة وحفة عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلاً
لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه فأبى علم
لعالم يرضى عن نفسه وأبى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه (١) .

هذا المسلك يحرم أنفسهم ونجموا من مهالكها ، ومع ذلك عدوا أنفسهم
من العاصين إذا علوا بأنهم سيطروا على أنفسهم ؛ فالنفس عندهم مقابلة
لله ، فرؤية أفعالها وتعتيها والإرتكان إليها بمقابلة الإشراف بالله ، لحسن
الظن بالله غاية المعرفة وسوء الظن بالنفس أصل للمعرفة بها .

(١) شرح الحكم لابن عطاء الله السكندرى — للإمام ابن عباد

فنهجهم ليس بالسهل الميسور لكل إنسان فهم قلة نادرة حفظوا
حدود ربهم والزموا أوامرهم، وشقوا على أنفسهم بالمجاهدة للوصول لرحمة
الحق . ومع ذلك وقفوا على باب الرجاء .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله : قالوا : ولا أنت
يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » ، ومع ذلك فهم في
كل زمان ومكان .

(1) $\int_{-\infty}^{\infty} f(x) \delta(x-a) dx = f(a)$
 (2) $\int_{-\infty}^{\infty} f(x) \delta(x-a) dx = f(a)$
 (3) $\int_{-\infty}^{\infty} f(x) \delta(x-a) dx = f(a)$

(4) $\int_{-\infty}^{\infty} f(x) \delta(x-a) dx = f(a)$
 (5) $\int_{-\infty}^{\infty} f(x) \delta(x-a) dx = f(a)$
 (6) $\int_{-\infty}^{\infty} f(x) \delta(x-a) dx = f(a)$